الرياض: ١١٤٤٢ ص.ب: ٦٣٧٣ ت: ٤٠٩٢٠٠٠ ف: ٤٠٣٣١٥٠
فروعنا - جدة ت: ٦٠٢٠٠٠٠ بريدة ت: ٣٢٦٢٨٨٨ الدمام ت: ٨٤٣١٠٠٠
www.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥] والقائل ـ سبحانه ـ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وأصلي وأسلم على رسوله الخاتم القائل: «إذا أراد الله بقوم خيراً ابتلاهم».

والقائل: «إن البلايا أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه» [الصحيحة: ١٥٨٦].

والقائل: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض في الدنيا» [صحيح الجامع: ٨١٧٧].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جرت سنة الله أن يبتلي العباد، وقد تتعدد صور الابتلاء والفتن: فمن الناس من يبتلى في نفسه، ومنهم من يتبلى في عرضه، ومنهم من يبتلى في ماله، ومنهم من يبتلى في ولده. ومن الناس من يبتلى بالخوف والجوع أو التشريد أو التعذيب، ومنهم من يبتلى بالسراء وسعة العيش ورغد الحياة وكثرة المال والجاه والسلطان، وأشدهم بلاء وأعظمهم فتنة من يبتلى في دينه والعياذ بالله، فليس لمصيبته جبران، وليس لبلائه عوض.

والشاهد أن الإنسان ـ المسلم والكافر ـ لا يخلو أن يكون معرضاً لنوع من الابتلاء، فمن صبر فله فضل الصبر وثوابه، ومن شكر فله نعيم الشكر وجزاؤه، ومن جزع وسخط فعليه وزر السخط وعقابه فلا يلومنّ إلا نفسه.

قال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة، ويعد الرخاء مصيبة.

ولله در القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي اللهُ بعضَ القومِ بالنّعم

إن من نعم الله على المسلم أن يختاره ليكون محل عبوديته، وإن من فقه المسلم أن يعلم إذا أصابته المصيبة ووقع عليه البلاء أن الله أراد به الخير، فحريٌّ بالمسلم أن يقابل هذه النعمة بعبودية الشكر، ويصبر على ألم البلاء، فيتقلب بين مقامي الشكر والصبر، وهو يشاهد منة الله عليه.

دخل أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - على رسول الله ﷺ وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة، فقال أبو سعيد: ما أشدّ حرّ حماك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنا كذلك يشدد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر» ثم قال: يا رسول الله، من أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء» قال: ثم من؟ قال: «ثم العلماء» قال: ثم من؟ قال: «ثم الصالحون، كان أحدهم يبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ويُبتلى بالقُمّل حتى تقتلهم، ولأحدهم أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» [الحاكم: ١/ ٤٠، ٤/ ٣٠٧ وصححه ووافقه الذهبي].

ولكن كيف نعد البلاء نعمة؟

وكيف يفرح أحدنا بالبلاء؟

عندما نعلم علم اليقين، ويستقر في قلوبنا، ونستحضر الأسباب المعينة على الصبر على البلاء، فنشهد جزاء المصيبة وثواب البلية إذا قابلنا قدر الله وقضاءه بصبر جميل عار من الجزع، وليس فيه تسخط، كما بين رسول الله ﷺ ثواب من يصاب بفقد بصره عندما يصبر ويحتسب أن الله لم يجعل له ثواباً دون الجنّة، كما هو في صحيح البخاري. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مؤمن يشوكه شوكة فما فوقها إلا حط الله عنه خطيئة، ورفع له بها درجة» [مسلم: ٢٥٧٢].

كمـا ينبغي أيضـاً في حق المصاب وهو يشـاهد ثواب المصيبة يشاهد أيضاً ـ وهو مكثـر من الذنوب ـ أن مصيبته هذه تكفر عنه سـيئاته وتحط عنه خطاياه، وتنقيـه وتطهره من دنس المعصية، حتـى يرد على الله مبـرءاً من أوساخ الذنوب وأدران المعـاصي، كـمـا بيّن رسـول الله ﷺ بقوله: «ما من مصيبـة يصاب بها المؤمن إلا كـفّر بهـا عنه حتى الشـوكة يشاكها» [البخاري: ٥٦٤٠، ومسلم: ٢٥٧٢].

وقوله: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حـزن حتى الـهم يهمـه إلا كـفّـر عنه من سيئـاته» [البخاري: ٥٣١٨، ومسلم: ٢٥٧٣].

كما ينبـغي للمؤمن وهو يتعرض للـبلاء أن يشاهد حق الله في تلك البلوى، فالله هو السيـد، ومن حق السيد أن يفعل في عبده ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأفعال الرب ـ تعالى ـ جـارية على منوال الحكمة، فهو منزه عن كل نقص وعيب وعبث، فإذا ابتلى عباده ابتـلاهم بحكمة، وإذا عافاهم عـافاهم لحكمة أيضاً، علم ذلك من عـلمه، وجهل ذلك من جهله. ومن ظنّ أن الله ـ عـزّ وجلّ ـ يصب البلاء على العـباد لمحض المشيـئة وليس عـقـوبة للعـصاة أو رفـعـاً لمنزلة الصالحين وإرادة الخير بهم وغير ذلك من حكم الابتـلاء، فمن ظنّ ذلك بالله سبحانه فقد ظنّ به ظنّ السوء وظنّ الجاهلية.

كما ينبغي للمؤمن أن يشاهد ترتب المصـائب عـليه بسبب ذنوبه، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى] وقال رسول الله ﷺ: «لا يصيب عبداً نكبـة فما فوقها أو دونهـا إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكـثر» [صحيح الجامع: ٧٧٣٢] وقال ﷺ: «ما اختلج عـرق ولا عين إلا بذنب، ومـا يـدفع الله عنه أكـثـر» [الصحيحة: ٢٢١٥]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم] وقال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ وأكثر ممن يعمله لم يغيروه إلا عمهم

الله بعقاب» [صحيح الجامع: ٥٧٤٩].

فحريٌّ بالمؤمن أن يشاهد أن ما أصابه من دقيق وجليل وحقير وعظيم إنما بسبب ذنوبه ومعاصيه، فيحدث لذلك توبة واستغفاراً، ويعلم أن الله لا يظلم الناس شيئاً، فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار والندم والتوبة والتضرع والإنابة، وذلك من الأسباب التي تدفع بها المصائب، ويعقب ذلك فعل الطاعات وعمل الخيرات التي يدفع بها البلاء، كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة.

كما ينبغي للمؤمن أن يعلم أن ما أصابه هو اختيار الله له ورضاه به، وما كان لعبد وما ينبغي له إلا أن يرضى باختيار الله وإلا يرضى بما رضيه الله، فبئس العبد إذن إذا اختار غير ما اختار الله ورضي بغير ما قدر الله له وارتضاه.

فالعبودية الصادقة الخالصة تقتضي موافقة العبد لسيده، وإذا لم يوف العبد قدر مقام الرب وعظمته فهو لضعف فيه، فلينزل إلى مقام الصبر ويستوطنه، فلا يبرحه ولا يتعدى ساحته ولا يخرج من تحت ظلّه، فإن استزله الشيطان وزحزحه عن أرض الصبر فقد نزل بساحة الظالمين، وتعدى الحق، وتجاوز خط الأمان وليوقن ساعتها أنّه على شفا هلكة.

كما ينبغي على المسلم أن يعلم أن الله إذا أصابه ببلاء فإنما يقدم له الدواء النافع، ويسوق له العلاج الناجح، فهو ـ سبحانه ـ العليم الرحيم يعلم أن هذا العبد لا ينفع له إلا هذا الدواء، وذاك العبد لا يصلح له إذا ذاك العلاج، وكل ميسر لما خلق له، وهو الرحيم ـ سبحانه ـ يرحم عباده بأن يبتليهم ببعض المصائب ليكفر عنهم سيئاتهم حتى يردوا عليه يوم القيامة مطهرين طيبين ليس فيهم دنس أو خبث، أو يرفع من شأنهم ويعلي من منازلهم، فالرحمة الحقيقية صفة تستلزم إيصال المنافع والمصالح إلى العباد، وإن كرهتها أنفسهم وشقّت عليهم، فأرحم الناس بك من يشق عليك لكي يدفع

عنك الضر، ويقرب إليك المصالح والمنافع: كمثل الأب الذي يطلب من الطبيب أن يقطع قدم ابنه المريض لكي لا ينتشر المرض الخطير إلى سائر الجسد، فهو يقطع عضواً ويشق على ابنه من أجل رحمته والمحافظة عليه.

فليصبر المسلم على تجرع الدواء وإن كان مراً، فهو من عند الحكيم الخبير العليم الرحيم، ولقد جاء في الأثر: أن الله إذا أحبّ عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه. [الترمذي: ٢٠٣٦ وحسنه والحاكم: ٤/٣٠٩ وصححه ووافقه الذهبي].

كما ينبغي للمسلم المبتلى أن يعلم أن عاقبة هذا الدواء تؤول به إلى الشفاء والعافية وزوال الآلام والأوجاع، فإذا وقف العبد على مرارة الدواء وكراهيته وشدته على نفسه وصعوبة غصصه، فعندما يتجرع العبد الدواء المستكره فلتنظر إلى عاقبته الحسنة، ويتنسم شذا العافية بعد الألم والصحة بعد المرض، فتهون عليه مرارة الدواء. فالبلاء هو الدواء يستشفى به مريض الذنوب والمعاصي.

قال الله - تعالى -: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال - تعالى: - ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

كما ينبغي للمسلم المبتلى أن يعلم أن المصيبة إذا حلّت بساحته وأقبلت عليه بخيلها ورجلها وهجمت عليه بحدها وحديدها أنها ما جاءت لتقضي عليه وتهلكه، بل ساقها الله إليه ليمتحن صبره ويختبره، فإذا تلقى العبد قدر الله وقضاءه بنفس راضية مستسلمة خاضعة ذليلة منكسرة بين يدي مولاه وانطرح على باب عبوديته يتضرع له - سبحانه - اصطفاه الله واجتباه، وألبسه ملابس الفضل والإكرام وقربه إليه.

أما - والعياذ بالله - إن سخط وجزع ولم يصبر ونكص على عقبيه وانقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، وصارت المصيبة في حقه مصيبتين كما قال ابن المبارك - رحمه الله -: إن

المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهي اثنتان، لأن إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة.

أما الصابر المحتسب بصبره تصير مصيبته في حقه نعماً كثيرة، وما بين منزلة الصابر ومنزلة الساخط إلا صبر ساعة. والمصيبة لابد أن يزول ألمها، ولكن شتان بين هذا وذاك، فتقلع المصيبة عن هذا وتخلف وراءها نعيماً وكرامات وخيرات بسبب صبره، وتقلع عن ذلك وتخلف وراءها من أنواع الخزي والحرمان والخذلان بسبب جزعه وسخطه، وربك حكيم عليم، يخلق ما يشاء ويختار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كما ينبغي للمسلم أن يوقن أن الله ـ عزّ وجلّ ـ يتعاهده طوراً بالبلاء وطوراً بالرخاء، وحيناً يلبسه لباس العافية وحيناً آخر يسلط عليه الأمراض والأسقام، ليربي عبده على القيام بحقائق العبودية الخالصة، ويتقلب بين مقامي الصبر والشكر، يسكن في منازل الصابرين إذا داهمته الدواهي وأصابته المصائب، ويرتع في رياض الشكر إذا نزلت عليه سحائب النعم وأمطرت عليه الخيرات.

فلا ينفك المؤمن عن أن يكون في أحد المقامين: إما أن يكون في حالة حسنة ونعمة وعافية فيشكر، وإما أن يكون في حالة حرمان ومنع وفاقة وبلاء فيصبر.

والمؤمن مثله كمثل الذهب المشوب بالنحاس، فإذا دخل تنور الابتلاء نقّاه وصفّاه وخلّصه، وأصبح ذهباً صافياً، فأي نعمة بجوار هذه النعمة وأي منة جنب هذه المنة، فكيف لا يشكر العبد ربّه الذي جعل له من البلاء ما يستخرج خبثه وينقيه ويطهره.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدّة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوّض منها أجل عوض وأفضله وهو رجوعه إلى الله بعد أن

كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضاً، وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل وبالله التوفيق). [طريق الهجرتين: ١٦٣ ـ ١٦٤].

فمطالعة ومشاهدة هذه الأمور تعين العبد على الصبر على البلاء ويكون البلاء في حقه نعمة ومنة تثمر الشكر، هذا لمن وقع في دائرة البلاء وحلّت بساحته المصائب، أما من كان في عافية وستر فلا يتمنى أن يقع به البلاء وليسأل الله العافية.

ثبت عن إبراهيم النخعي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: سلوا الله العافية، فلستم بعباد بلاء، إن كان الرجل من قبلكم ليسأل الكلمة فيأباه، حتى يوضع المنشار على رأسه فيشق بنصفين وما يعطيها».

ولا يتمنى المسلم لقاء العدو أو نزول البلاء عليه أو أن يتعرض لما لا يطيقه، فقد ثبت عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله!**

لا تطيقه ـ أولا تستطيعه ـ أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟» قال: فدعا الله له، فشفاه» [مسلم: ٢٦٨٨].

وثبت عن ثابت البناني عن مطرف قال: لأن أعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلى فأصبر.

وعن معمر عن قتادة قال: حظ من علم أحب إليّ من حظ عبادة، ثم قال: ونظرت في الخير الذي لا شر فيه فلم أر مثل المعافاة والشكر.

وعن **حميد بن هلال** قال: قال مطرف: ما خير لا شر فيه ولا آفة، ولكل شيء آفة، فإذا هو أن يعافى عبد فيشكر.

وعن أبي الدرداء قال: ذكر رسول الله ﷺ البلاء وما أعدّ الله لصاحبه من جزيل الثواب إذا هو صبر، فقلت: يا رسول الله لئن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر؟ فقال رسول الله ﷺ: «ورسول الله يحبّ معك المعافاة» [الزهد لهناد: ١/ ٢٥٥].

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله: (ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته، فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له، وهو مدرك لما وراءه من حكمة، واستسلم لمشيئة الله واثقاً من حكمته، متطلعاً إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء. وقد روي عن الفضيل بن عياض العابد الصوفي أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبلنا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا). [الظلال: ٦/ ٣٢٩٩].

كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» .[الترمذي: ٣٥١٣، وقال: حسن صحيح].

وثبت أيضاً: «اللهم إني أسألك العفة والعافية في دنياي وديني وأهلي ومالي» [صحيح الجامع: ١٢٧٤].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (ومنها إقامة حجة عدله على عبده، ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال: من أين هذا؟ ولا من أين

أتيت؟ ولا بأي ذنب أصبت؟ فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه وما يعفو الله عنه أكثر، وما نزل بلاء قط إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة، ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ولا يدري العبد أي النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب، وما يصيب المؤمن من همّ ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه، وإذا كانت الذنوب عقوبات ولابد فكلّ ما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له فما بعده وأيسر وأسهل بكثير). [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٩١].

وقال العلامة **محمد المنبجي الحنبلي** ـ رحمه الله ـ: (وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء وحفظاً لصحة عبوديته واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه). [تسلية أهل المصائب: ص، ٣٤].

وقال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: (فالرب يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه ، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره، لا يستغني عنهما طرفة عين). [عدة الصابرين: ١٦٠].

«اللهم، أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» [مسلم: ٤٨٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



SR 0